القوة الجوية ضد الأعداء غير التقليديين
إطار عمل لتقييم الفعالية

دكتور مارك كلودفيلتر

"غير تقليدي" هو مصطلح يُستخدم لوصف نوع ما من الحروب التي غدت معنا منذ مدى أطول من تاريخ نشوء هذا المصطلح العصري. ففي معناها الخالص، تدل الحرب الغير تقليدية عن الأهداف والسبل والطرق القتالية التي غرضها لا يتناسب مع أهداف العدو المرجوة أو القتال بالطرق التي تختلف عن أسلوب العدو في القتال، أو القتال بوسائل مختلفة عن إمكانيات العدو. ولكن في التقرير الرباعي لمراجعة أنظمة الدفاع لعام ٢٠٠١، هذا المصطلح يصف دوماً العدوان الغير فعّال للقوات الضعيفة بنواحي غير متوقعة لضرب نقاط ضعف القوة الأعظم - في هذه الحالة الولايات المتحدة الأمريكية.[١] ويمكن استخدام أي نوع من القوات العسكرية بطريقة غير تقليدية، القوات الجوية ضمناً، كما برهن إرهابيو تنظيم القاعدة هذا الأسلوب المدمر يوم الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١. ولكن كيف يمكن استخدام القوة الجوية على النحو الأمثل ضد العدو الغير تقليدي؟ إن الجواب لا يختلف عن الرد على السؤال الرئيسي المتعلق باستخدام القوة الجوية ضد أي عدو - وهو كيفية استخدام القوة الجوية كوسيلة فعّالة في الحرب؟

وتقييم فعّالية القوة الجوية ليس بالمهمة اليسيرة. ويكمن سبب هذه الصعوبة في أنه ليس هناك إجماع عالمي يوضح معنى الفعّالية. وربما قدم كلاسويتز أفضل توضيح لهذا التقييم - وهو كيفية استخدام الآلة العسكرية لتحقيق الهدف الأمثل لكسب الحرب؟ وهو مؤلف كتاب "عن الحرب،" ويشير إلى تساوي معنى "الانتصار" في الحروب مع تحقيق الأهداف السياسية، وهذا التفسير يحدد إطار العمل التالي لتقييم فعّالية استخدام القوة الجوية.[٢] ومثل كل إطارات العمل الحقيقية، هذا الإطار يقدم مجموعة من الإجابات المعيارية. ولا يتنبأ بالمستقبل أو يقدم دليلاً جماعياً للنجاح أو الفشل، ولكن بالأحرى، يقدم منطلق

مضمون لتقرير قيمة القوة الجوية في أي من الظروف. وهذا المنطلق يتضمن مصطلحاً مميزاً يصنف الاستخدامات المتعددة للقوة الجوية، وتُستخدم هذه التصنيفات في تقييم كيف أن استخدامها على نحو فعّال يساعد على تحقيق الهدف السياسي المرجو. ومع ذلك، فإن تحديد الفعّالية السياسية لاستخدام القوة الجوية ليس طريقاً مستقيماً لأن الوصول إلى الأهداف السياسية أحياناً يتطلب استعمال طرق غير مباشرة.

وكما يوضح النقاش حول مسألة إطار العمل، إن هذه الأهداف قد تكون ايجابية أو سلبية. والتي هي بدورها تؤثر على قدرة القوة الجوية على إنجازها.

بينما يمكن النظر إلى مصنّفات استخدامات القوة الجوية على أنها ثوابت (جوهر كيفية استخدام القوة الجوية في كل من المصنفات لا يتعرض للتغيير)، غير أن هناك متغيّرات خمسة رئيسية التي تؤثر على قدرة كل استخدام على تحقيق النجاح (١) طبيعة العدو (٢) نوع الحرب التي تشن على العدو (٣) جو معركة القتال (٤) حجم التحكم العسكري (٥) طبيعة الأهداف السياسية. وأهمية كل متغيّر قد تختلف حسب المواقف المختلفة لتحقيق نتائج مختلفة. وبذلك، فإن القادة العسكريين والسياسيين الذين يستخدمون القوة الجوية يجب عليهم أن يدركوا بشكل تام المتغيّرات وكيف تندمج لإنتاج النتيجة المرجوة.

ويقدم إطار العمل طريقة لتحليل استخدامات القوة الجوية، ويقوم بتشريح المتغيّرات كلياً وفحص كيف تكاملها قد يكون له تأثير على إمكانية القوة الجوية على تحقيق النجاح السياسي. والأمل هو أنها أيضاً تقدم اعتبارات تطبيقية وتحذيرات للمسئول السياسي الناوي على استخدام القوة الجوية بالإضافة إلى القائد المسئول عن تحويل الأهداف السياسية إلى أهداف عسكرية.

القوة الجوية وتطبيقاتها

قبل أن تخوض المقالة في البيانات الهامة لإطار العمل يجب تعريف المصطلح غير المحدد للقوة الجوية. فقد عرّفها اللواء وليام "بيلي" ميتشل على أنها "القدرة على عمل شيء ما في النطاق الجوي." وهذا الوصف مبهم لدرجة أنه لا يكون مفيداً.[٣] وكانت أفضل التعريفات هي التي صاغها اثنان - المشير الجوي ر. ج. أرميتاج ومساعد المشير الجوي ماسون في كتابهم المشهور "القوة الجوية في العصر النووي: القدرة على تسليط القوة العسكرية من خلال البعد الثالث وفوق سطح الأرض،"[٤] وعلى الرغم من أن ارميتاج وماسون أقرّا بأن تعريفهما يشمل مناطق رمادية (على سبيل المثال، ما إذا كانت القوات الجوية تحتوي على قذائف صاروخية أو أسلحة أرض-جو أم لا)، فإنه يكفي لتوضيح إطار العمل المقدم مسبقاً. فإن تعريفهما حقاً يشير إلى خصائص القوة الجوية "التي يتم تجاهلها أحياناً" وبشكل خاص

تأثيرها الكامن وقدرتها على استخدام القوة مباشرة أو على توزيعها.[٥] وهذه الخصائص تشكّل التميزات الرئيسية المستخدمة في إطار العمل لتصنيف مهام القوة الجوية.

وأنواع استخدام القوة الجوية - الطرق التي يمكن تطبيقها - تعتبر العناصر الرئيسية لإطار العمل. فعلى سبيل المثال، إن القوة الجوية معدة للاستخدام الفعّال ولكنها في الحقيقة لم تستخدم في عملية ما تعد استخداماً كامناً - تأثير ممكن- يتعلق بقيمة ردعها، وفي هذه الحالة إن القوة الجوية لا تستخدم على نحو مباشر في حالة الطوارئ، على العكس، فإن استخدامها مهدداً. وتعج الأمثلة على الاستخدام الكامن: توصيات أدولف هتلر باستخدام السلاح الجوي أثناء إعادة احتلال أرض الراين في عام ١٩٣٦ أو أزمة ميونخ في عام ١٩٣٨، وقيام الرئيس هاري تورمان بنقل طائرات B-29 إلي انجلترا أثناء النقل الجوي ببرلين في عام ١٩٤٨، وتحذير الرئيس دوايت ازينهاور من الهجوم الجوي بالقنابل الذرية ضد كوريا الشمالية ومنشوريا في المراحل الأخيرة للحرب الكورية، واعتماد الرئيس جون كندي على طائرات القيادة الجوية الاستراتيجية B-52 وقوة الصواريخ أثناء أزمة الصواريخ الكوبية في عام ١٩٦٢، وغيرها.

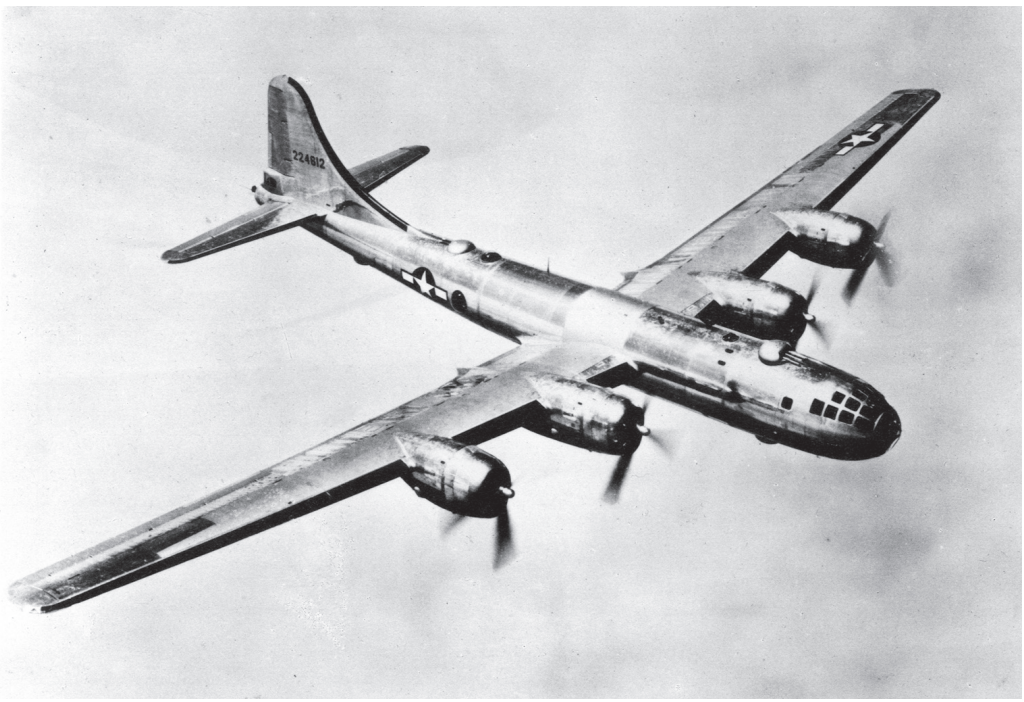

B-29

ورغم أن إطار العمل يتقبّل مثل هذه التطبيقات الكامنة، إلا أن الاهتمام الأولي يدور حول الاستخدام الحقيقي للقوة الجوية أثناء الطوارئ. فاستخدام القوة الجويةفي حالة الأزمة يتضاعف اعتماداً على غرض المهمة العسكرية: سواء كانت مباشرة أم غير مباشرة، وإما إضافية أم مستقلة. الاستخدام المباشر للقوة الجوية هو الاستخدام الفتّاك المتعمّد - مصمم للاستخدام في المدفعية. وإسقاط القنابل وإطلاق الصواريخ والرشاشات يأتي ضمن نطاق هذا الاستخدام. وعلى العكس، فإن الاستخدام الغير مباشر للقوة الجوية هو استخدام متعمّد غير فتّاك، مثل النقل الجوي وطائرات الاستطلاع أو طائرات التشويش الالكتروني أو طائرات تزويد الوقود في الجو.

وبالإضافة لكون الاستخدام مباشراً أو غير مباشر، فإن استخدام القوة الجوية قد يكون أيضاً إما مستقلاً أو إضافياً. والاستخدام الإضافي للقوة الجوية يكون لمساعدة القوات البرّية أو البحرية في مجال معركة محددة، في حين أن القوة الجوية المستقلة من شأنها تحقيق أهداف باستثناء تلك المخصصة للجيوش أو الأسلحة البحرية في مكان محدد. ويشمل الشكل الإضافي كلاً من الدعم الجوي القريب والهجوم الجوي ضد قوات العدو في مناطق المعركة الغير مجاورة للقطاعات الصديقة.[٦]

ولهذا، فإن ما يسمى بالقذف الاستراتيجي - الموجه تجاه قابلية العدو لشن الحرب قبل أن يستخدم هذه القابلية في أرض المعركة - يمثّل الاستخدام المستقل. ولا تزال المصطلحات الاستراتيجية والتكتيكية تتداخل معاً وتسبب عادة غموضاً في إيضاح المعنى. وفي النصف الأخير من القرن لم تؤثر العديد من الهجمات الجوية أثناء بعض الحروب المحدودة فقط على مجرى التداخل بعينه ولكنها أيضاً تضمنت نتائج "استراتيجية" عظيمة. فعلى سبيل المثال، الهجمات الجوية الأمريكية على قاذفات صواريخ سكود المتحركة، أثناء حرب الخليج في عام ١٩٩١، كانت تستهدف تدمير القدرة التكتيكية للعراق على إطلاق قذائف صاروخية وتحقيق الهدف الاستراتيجي من تهدئة قلق إسرائيل، وبهذا عزلهم من النزاع.

وبسبب هذه التمييزات المبهمة، فإن المصطلحين إضافي ومستقل يبدوان أكثر ملائمة من مصطلحي تكتيكي واستراتيجي للتعبير عن الاستخدامات المختلفة للقوة الجوية. ولكن المصطلحان السابقان، ليسا أصليان على نحو كامل لأن التمييز بين الاثنين يعتمد على تعريف المستخدم لمعنى كلمة ميدان المعركة. وفي الحرب الحديثة قد يمتد ميدان المعركة إلى مئات الأميال، وفي حرب ثورية مثل فيتنام قد يكون ميدان المعركة أكبر. فقد وصف اللواء وليام ويستمورلاند، قائد خدمة القيادة العسكرية الأمريكية في الحرب الفيتنامية من عام ١٩٦٤ إلى ١٩٦٨، ميدان المعركة بأنه "كل منطقة فيتنام الجنوبية."[٧] وقد يبدو مثل هذا المدى غير معقول، ولكنه يبين حقيقة أن تعريف ميدان المعركة يعتمد بحد كبير على نوع الحرب التي يتم خوضها.[٨] في المعركة الـ"تقليدية" تشن بهدف الاستيلاء أو الحفاظ على قطعة

أرض ويمكن أن تكون حدود ميدان المعركة أكثر تمييزاً من حرب العصابات، خاصة مثل حرب فيتنام، والتي كانت فيها القوات الثورية تحارب على نحو متقطع.

وطبقاً لمصطلح إطار العمل، فإن كل استخدام للقوة الجوية يحمل تضمينين: مباشر أو غير مباشر، إضافي أو مستقل. على سبيل المثال، القصف الأمريكي لمصانع الكريات في شفاينفورت بألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية كان استخداماً مباشراً/مستقلاً، والجسر الجوي في برلين، بين عامي ١٩٤٨-١٩٤٩، كان استخداماً غير مباشر/مستقل، وضربات B-52 حول خيه سان في فيتنام الشمالية، أثناء حصار عام ١٩٦٨، كان استخداماً مباشر/إضافي، والجسر الجوي بالطائرات C-130 للإمدادات إلى القاعدة البحرية التي تعرضت إلى القصف كان استخداماً غير مباشر/إضافي. وتصف الإيضاحات المزدوجة غرض المهام الفردية للقوة الجوية أكثر وضوحاً من المصطلحات المبهمة لكلمتي استراتيجية وتكتيكية. بالإضافة، فإن تركيز بؤرة إطار العمل على مغزى أهداف القوة الجوية يبرز مرونتها المتأصلة بإظهار قابلية أي نوع من الطائرات - سواء القاذفات أو المقاتلات أو النقل الجوي أو مثلها - من المشاركة في الاستخدامات المختلفة.

ولكن ماذا عن مهمة سيادة القوة الجوية؟ ما هو موقعها في نطاق إطار العمل؟ مهمة المراقبة الجوية إما تكون إضافية أو مستقلة، وذلك يعتمد على كيفية استخدام المجال الجوي. على سبيل المثال، فرض السيادة الجوية فوق الكويت لتمكين قوات التحالف البرّية من شن الهجوم على القوات العراقية يمثّل استخدام مباشر/إضافي. وتحقيق السيادة الجوية فوق بغداد لتمكين الطائرات من ضرب مرافق الطاقة الكهربائية ووسائل الاتصالات الرئيسية في المدينة تعد استخداماً مستقلاً ومباشراً. وأحياناً، السيطرة الجوية يمكن أن تعد استخداماً إضافي ومستقل. وتحقيق السيادة الجوية في النهار على القارة الأوربية كنتيجة لعمليات "الأسبوع الكبير" في فبراير ١٩٤٤ يعتبر أحد الأمثلة. وكانت حصيلة التحكم الجوي هي ضمان استمرار عمليات القذف الأمريكي على أهداف الصناعة الألمانية وتوفير الحماية اللازمة لغزو نورماندي.

ويجادل البعض قضية أن السيادة الجوية ينبغي أن تكون في تصنيف مستقل في إطار العمل، كما يُعد "القصف الجوي المضاد" مميّز في إطار "وظائف القوة الجوية و الفضائية" في النسخة الحالية للعقيدة الرئيسية للقوات الجوية.[٩] ولا يقوم إطار العمل بتصنيف السيادة الجوية بشكل منفصل لأن السيادة الجوية لا تعتبر هدفاً بحد ذاتها. والتحكم الجوي - والذي يستخدم فيه كل من الوسائل المباشرة والغير مباشرة - يسمح بحدوث استخدامات مستقلة وإضافية ومباشرة وغير مباشرة. وبنفس الطريقة، تصنيف الاستخدامات غير المباشرة، مثل تزويد الوقود في الجو والنقل الجوي والاستطلاع، يعتمد على نوع المهمة التي تيسر القيام بها. على سبيل المثال، إعادة تموين الطائرات المقاتلة التي توفر الدعم

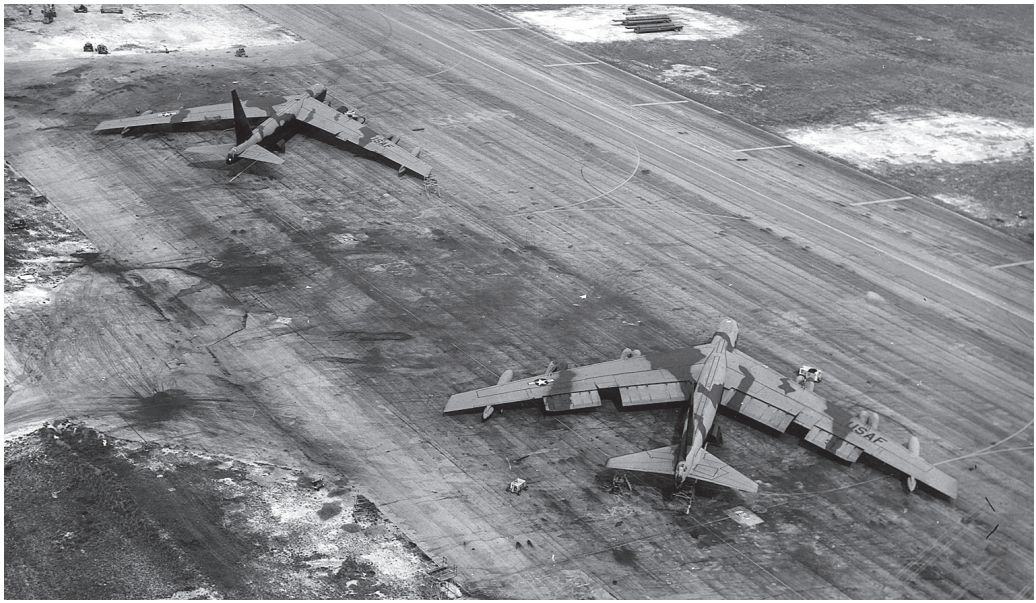

B-52

الجوي القريب إلى القوات البرّية والتي تشكل استخداماً إضافي/غير مباشر. نقل القنابل الذكية جوياً لتنفيذ عمليات F-117 ضد أهداف في بلغراد ويوغوسلافيا، أثناء عمليات قوات التحالف Operation Allied Forces هي استخدام غير مباشر/مستقل. والحصول على صور استطلاعية لمواقع الجبهة الأمامية العراقية في دولة الكويت يعتبر استخدام غير مباشر/ إضافي.

ولكن تحقيق السيادة الجوية التي تسهّل عمليات الغزو الكاسح أو تأمين التقاط الصور الاستطلاعية التي تقود إلى افتراق الدفاع العراقي لا تضم بين ثناياها بالضرورة استخدام ناجح للقوة الجوية. هناك مقياس حقيقي وحيد لتقييم نجاح القوة الجوية بصرف النظر عما إذا كان الاستخدام مباشر أو غير مباشر إضافي أو مستقل. وهذا المقياس يُعد النقطة الجوهرية لإدراك: ما مدى مساهمة الاستخدام في تحقيق الهدف السياسي المرغوب؟ هل ساعد على إحراز النصر أثناء المعركة؟ الإجابة على هذا السؤال يتطلب أولاً تحديد معنى النصر. يجب تحديد الأهداف التي تشن من أجلها الحرب وضرورة ربط العلاقة بين استخدام القوة الجوية وتحقيق هذه الأهداف (شكل ١).

الأهداف الحربية هي عبارة عن الأهداف السياسية للدولة، أو المنظمة، في الحرب والتي يمكن أن يكون مداها من محدود إلى إجمالي. الاستراتيجية الكبرى تضم بين ثناياها الآلات الاستعلامية والعسكرية والاقتصادية والدبلوماسية في مجهود مركز بغرض تحقيق هذه

شكل ١، الأهداف الحربية واستخدام القوة الجوية

الأهداف. بينما تضم الاستراتيجية العسكرية العديد من عناصر القوة العسكرية لتحقيق الأهداف العسكرية وبالتالي، تحقيق الأهداف السياسية. والوصول إلى الأهداف العسكرية قد يتطلب مزيج من العمليات على الصعيد البرّي والجوي والبحري، والقوات التي تقوم بهذه العمليات قد تقوم بها إما بشكل مستقل أو إضافي، هذه التعريفات والعلاقات المترابطة واضحة نسبياً. ولكن مثل هذه العلاقات المترابطة، ليست وحيدة في تحديد ما إذا كانت القوة العسكرية - خصوصاً القوة الجوية - ستثبت قدرتها فعّالة في تحقيق الأهداف الحربية المرجوة. بالإضافة إلى كونها إما محدودة أو إجمالية، أهداف الحرب أيضاً قد تكون سلبية أو ايجابية. الأهداف الايجابية يمكن تحقيقها فقط عن طريق استخدام القوة العسكرية بينما، وعلى العكس، لا يمكن تحقيق الأهداف السلبية إلا بتقييد القوة العسكرية.[١٠] بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، على سبيل المثال، فإن استسلام ألمانيا التام في الحرب العالمية الثانية كان هدف سياسي ايجابي - الذي تطلّب تدمير القوات المسلحة الألمانية والحكومة والنهج الاجتماعي القومي. وقامت أمريكا باستخدام القوة العسكرية لتحقيق هذا الهدف، وقلة من الأهداف السلبية تحدد استخدامها للآلة العسكرية. بالمقارنة، كان للولايات المتحدة الأمريكية في كوسوفو هدف ايجابي وهو إزالة القوات الصربية وأيضاً هدف سلبي وهو الحفاظ على معاهدة منظمة الشمال الأطلسي، والهدف الأخير حدّ من حجم القوة التي كان يمكن لأمريكا أن ترسلها. المثال المشابه لذلك هو حرب الخليج في عام ١٩٩١، غير أن أثناء هذا النزاع كان لهدف الولايات المتحدة الأمريكية في الحفاظ على التحالف مغزى سلبي وآخر ايجابي. أي أن الرئيس الأمريكي بوش الأب، جورج هـ. و. بوش، اضطر إلى تخصيص العسكرية الأمريكية بغرض وقف صواريخ سكود العراقية لوقف إسرائيل من شن الحرب، ولكنه إذا استخدام أعداد كبيرة من القوات الجوية لكان ذلك مؤشر يهدد بحل الائتلاف.

يرى بعض النقّاد أن فكرة الأهداف السلبية تشير إلى القيود، وذلك يُعد خطأ بسبب أن أهمية هذه الأهداف أكثر من كونها قيود. في الحقيقة، إن أهميتها مماثلة للأهداف الايجابية. الفشل في تأمين الأهداف الايجابية أو السلبية ينتج عنه هزيمة: ولتحقيق النصر، يجب تحقيق كل منهما. وما كان للولايات المتحدة أن تنتصر في حرب الخليج أو كوسوفو لو انحلت قوات التحالف التي دعمت هذه الحملات. الطبيعة المتناقضة للأهداف الايجابية والسلبية **بالطبع تسبب معضلة - ما يساعد على تحقيق هدف ايجابي يعمل ضد الهدف السلبي.** في الحرب المحدودة، تتواجد دائماً الأهداف السلبية. وكلما كانت الحرب محدودة أكثر كلما زادت عدد الأهداف السلبية. كالذي اكتشفه الرئيس ليندون جونسون على نحو مؤسف في حرب فيتنام، **عندما غطّت الأهداف السلبية على الأهداف الايجابية وفشل في تحقيق النجاح بأي** قوة عسكرية - خصوصاً القوة الجوية.

كيف تؤثر الأهداف الايجابية والسلبية على استخدام القوة الجوية؟ من جهة، إن غياب الأهداف السلبية يشجع على تخطيط حملة جوية قليلة القيود، مثل الهجوم الشامل بالقنابل في الحرب العالمية الثانية ضد القوات الألمانية أو هجوم القوات الجوية رقم عشرين على اليابان. على الجانب الآخر، تفوّق الأهداف السلبية يحدد من استخدام القوة الجوية. **الأهداف السلبية حددت الحملات الجوية الأمريكية في كل صراعٍ رئيسي منذ الحرب العالمية** الثانية - كوريا وفيتنام وحرب الخليج وبوسنة وكوسوفو و،أخيراً، أفغانستان. وتظهر القيود في شكل قوانين اشتباك "التعليمات التي تصدرها القيادة العسكرية العليا والتي تحدد الظروف والقيود التي بسببها تبادر القوات الأمريكية و/أو تستمر بالاشتراك في المعركة مع القوات الأخرى."[11] الدافع لهذه التعليمات ينبع من القادة السياسيين وأهدافهم السلبية (شكل ٢).

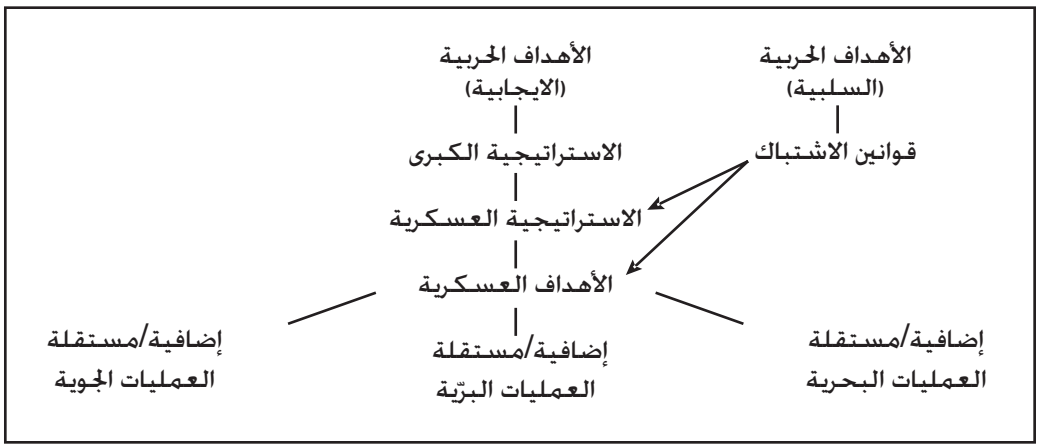

الشكل ٢. تأثير الأهداف السلبية على استخدام القوات الجوية

كلما زاد عدد الأهداف السلبية - وزادت قيمة أهميتها للقادة السياسيين - كلما زادت صعوبة تحقيق الأهداف الإيجابية بالقوة الجوية. هذا التقييم خاص بالاستخدام المباشر والمستقل للقوة الجوية. وإذا طغت الأهداف السلبية على الأهداف الايجابية، فسوف تقلل - وحتى تشل - قدرة القوة الجوية على إصابة المركز الرئيسي للدولة أو المنظمة العدوانية. ولكن قبل أن يشير مستخدم إطار العمل إلى هذا التصريح كحقيقة ثابتة، ينبغي إدراك أن تقييم الأهداف الإيجابية مقابل الأهداف السلبية نشاط ذاتي. وعادة لا يمكن تقييم الأهداف السلبية والايجابية بنحو كمّي، حتى لو كانت المقارنة رقمية. فهذه المقارنة مثل مقارنة التفاح بالبرتقال. علاوة على ذلك، فان الأهداف السلبية والايجابية يمكن الإشارة إليها صراحة أو ضمنياً، وذلك يفسد ما يتعلق بتقييم النتائج. ولكن التصريح بالأهداف لا يكفل الإيضاح، وغياب تحديد الأهداف بشكل واضح يجعل من عملية تقييم النتائج المحققة مسالة صعبة. على سبيل المثال، الأهداف الأمريكية الايجابية المصرح عنها في حرب الخليج "بالانسحاب الفوري الكامل والغير شرطي للقوات العراقية من الكويت" و"استعادة الحكومة الكويتية الشرعية" كانت واضحة، والنجاح في تحقيقها كان عملية سهلة التقييم. وعلى العكس من ذلك، فإن تقييم النجاح في الهدف الايجابي المصرح عنه بتحقيق "الأمن والاستقرار للمملكة العربية السعودية ودول الخليج العربي" أثبتت مصداقية عدم وضوحها أثناء النزاع وظلت غير مؤكدة في أعقاب الحرب.[١٢]

ففي حالة حرب الخليج العربي، لم تعوّق الأهداف السلبية للحفاظ على دعم قوات التحالف وتثبيت التأييد العام في كل من الولايات المتحدة الأمريكية ودول العالم القوة الجوية من إزالة القوات العراقية من الكويت. مثل ذلك، الاستخدامات المتعددة للقوة الجوية في تلك الحرب لم توقف الرئيس بوش عن تحقيق أهدافه السلبية، على الرغم من الاستخدام المباشر والمستقل بضرب مستودع الفردوس في بغداد والاستخدامات المباشرة والإضافية التي نتج عنها ضحايا بسبب نيران الطلقات الصديقة في الكويت، الأمر الذي جعل تحقيق الأهداف السلبية أمراً عسيراً. وبالنهاية، هذا هو المعيار الذي تقاس به فعّالية القوة الجوية - فيما يتعلق بمدى قدرتها على مساندة الأهداف الإيجابية بدون المخاطرة بالأهداف السلبية.

المتغيّرات الرئيسية

أثناء محاولة تحديد متى تساعد القوة الجوية على تحقيق الأهداف الرئيسية، تظهر المتغيرات الخمسة الرئيسية التي ذكرت مسبقاً.[١٣] وهذه المتغيرات تعد عوامل معقّدة لا يمكن فصلها بسهولة ولا يمكن اعتبار أحدها بمنأى عن الآخرين لأن تأثير المتغيرات يكون غالبا تكاملياً. فكل منها تحتوي على أسئلة مرافقة لها، والأسئلة المطروحة ليست شاملة بالكامل، وغيرها حتماً ستبادر إلى الأذهان. وإجابة الأسئلة على نحو مختلف لمتغير واحد قد تزيد أو تقلل من

أهمية المتغيرات الأخرى. وليست هناك معادلة لتحديد نوع المتغير ذو الأهمية في أي موقف معين أو كيف يساهم التأثير الجماعي في - أو يعمل على إعاقة - تحقيق الأهداف الايجابية. ولكن في حال مجادلة كل المتغيرات الخمسة ضد أحد استخدامات القوة الجوية، فإن هذا الاستخدام من المحتمل أن يكون غير فعّال. فإن الافتراضات التي استخدمت في الإجابة على الأسئلة عن كل متغير تعد أيضاً ذات أهمية قصوى. فإن كانت هذه الافتراضات خاطئة فهناك احتمال أن يكون التقييم أيضاً خاطئ.

طبيعة العدو

ما هي القدرات العسكرية التي يملكها العدو؟ وما هي منشآت العدو العسكرية؟ وهل القوة التي لديه قوة مجندة أم قوة عسكرية تطوعية، أو مزيج منهما؟ وهل مجتمع العدو متحد عرقياً ودينياً واجتماعياً؟ وأين يتواجد معظم سكان هذا المجتمع؟ وما إذا كان السكان زراعيين أم مدنيين؟ وما نوع الحكومة أو الجهاز القيادي المركزي للعدو؟ ومن هم هؤلاء القادة؟ هل هم أقوياء أم ضعفاء؟ وما هو موقف الشعب تجاههم، التأييد أم الكراهية؟ وهل الشعب في حالة تردد؟ وما هي درجة عزم القادة السياسيين؟ القوة العسكرية؟ الشعب؟ وكيف يتم تمويل الدولة أو المنظمة العدوانية حالياً؟ هل هناك استقلال ذاتي في أي ناحية بالذات؟ وما أهمية التجارة؟ وما نوع الحلفاء الذين يستعين بهم العدو، وما مدى المساعدة التي يمكن للحلفاء تقديمها؟ وإذا كان هناك أكثر من عدو مشارك، فيجب أن تثار هذه الأسئلة بشأن كل عدو وتقييم أي منهم أكثرتهديداً.

نوع الحرب التي يشنها العدو

وهذا المتغير يؤثر على القدرة الجوية على تحقيق هدف سياسي إيجابي. هل الصراع ما هو إلا حرب تقليدية للاستيلاء أو السيطرة على قطعة أرض؟ هل هذه حرب عصابات غير تقليدية؟ هل يدعم هذا التمرد طرف ثالث؟ وهل الصراع حرب متحركة أم راكدة ومن مناطق ثابتة؟ وما هو مدى تكرار العمليات القتالية؟ الاستخدام المباشر للقوة الجوية عموماً، سواء تم تقديمه على نحو مستقل أو إضافي، يعمل بشكل أكثر فعّالية عندما يقود العدو حرباً تقليدية وسريعة التحرّك. وعلى سبيل المثال، مزج الهجمات المستقلة والإضافية أثناء السنة الأولى من الحرب الكورية النشطة كان له تأثير على كفاءة الصينيين والكوريين على مواصلة القتال. وأثناء العامين الأخيرين من الحرب، عندما قامت القوات الصينية والكورية بالقتال بنحو خامل في منطقة محددة على خط عرض ٣٨، فقد ساعد الاستخدام المباشر للقوة الجوية على التقدم ببطء نحو تحقيق هدف الرئيس ترومان من التسوية على أساس المفاوضات والمحافظة على استقلال كوريا الجنوبية كدولة غير شيوعية.

طبيعة بيئة الصراع

ما هو المناخ والطقس والتضاريس والنباتات في منطقة العدو؟ وكيف يمكن أن تؤثّر على استخدامات القوة الجوية؟ وهل القواعد متوفرة بشكل كافٍ؟ ما هي المسافات المتعلقة باستخدام القوة الجوية وهل يمكن التغلب عليها؟ وما هو نوع الدعم المطلوب؟

مقدار التحكم العسكري

يشمل هذا المتغيّر القيود الموضوعة على استخدامات القوة الجوية من جانب القوات العسكرية بدلاً من القادة السياسيين. في الأحوال المثالية لا توجد قيود عسكرية، ولكن تلك قد تكون أو لا تكون هي الحالة - فمثل هذه القيود يمكن أن تنجم عن العديد من المصادر. فهل القيادة موحدة؟ وما هي الترتيبات الإدارية للسيطرة على القوة الجوية، وهل تتضارب تلك الترتيبات مع السيطرة الفعّالة؟ نظام "مجموع الطرق" الذي ميّز قوات الدفاع الجوية عن المجال الجوي للبحرية فوق فيتنام الشمالية وأدى إلى المنافسة بين السلاحين في الغارات يقف ربّما كمثال أكثر شناعة عن قابلية ضعف وحدة القيادة على عرقلة الحملة الجوية. ويمكن للعقيدة أيضاً من تقييد القوة العسكرية. فهل العقيدة التي توجّه الاستخدامات المختلفة للقوة الجوية متكيّفة مع الظروف المختلفة؟ وما هي الاعتقادات الشخصية للقادة بخصوص ما هي أفضل طريقة لاستخدام القوة الجوية؟ فالقناعات الشخصية يمكن أن تلعب دوراً هامّاً في الحد من استخدامات القوة الجوية - كما تشهد بذلك الحرب الكورية. فأثناء ذلك النزاع، منع لواء الجيش ماثيو ريدجواي، قائد الأمم المتحدة، قصف المنشآت الكهرومائية لكوريا الشمالية بالرغم من أنه كانت لديه سلطة إجراء الغارات وتشجيع هيئة الأركان المشتركة على عمل ذلك. واعتقد ريدجواي أن مثل هذه الهجمات قد توسّع مجال الحرب، ولكن وريثه اللواء مارك كلارك، لم تكن لديه مثل هذه المخاوف.[١٤] فبعد شهر واحد من استلام كلارك للقيادة، هاجمت طائرات قوات الدفاع الجوي والدفاع البحري والقوات البحرية هذه المنشآت.

طبيعة الأهداف السياسية

في أغلب الأحيان، يكون هذا المتغيّر هو الأكثر أهمية. هل الأهداف الإيجابية قابلة حقاً للتحقيق من خلال استخدام القوة العسكرية؟ وهل استخدام القوة الجوية ضروري لتحقيق الأهداف الإيجابية؟ وما مدى عزم القيادة المستخدمة للقوة الجوية على تحقيق الأهداف الإيجابية؟ وما مدى التزام عامة الشعب؟ وهل تستطيع القيادة تحقيق الأهداف الإيجابية بدون إنكار الأهداف السلبية؟ وكيف تعمل الأهداف السلبية على تحديد قدرة القوة الجوية على تحقيق الأهداف الإيجابية؟ ويبدو أن الاستخدام المستقل المباشر للقوة الجوية أفضل لمحاربة المتعدّي بدون أهداف سلبية - بشرط أن يشن نوع مناسب من العدو نوعاً ملائماً

من الحرب في نوع مناسب من البيئة خال من القيود العسكرية العظيمة. ولقد وجدت الولايات المتحدة الشروط المناسبة في الحرب العالمية الثانية. وحدّدت القليل من الأهداف السلبية أو القيود العسكرية من استخدام القوة العسكرية. وكان إدراك الأمريكيين شامل لكلا العدوين- الألمان واليابانيين - الذين قاتلوا في بيئات شجعت على الاستخدام المستقل المباشر للقوة الجوية. ولكن منذ الحرب العالمية الثانية، لعبت الأهداف السلبية أدواراً بارزة في توجيه المجهود الحربي الأمريكي. وبالنسبة للولايات المتحدة في المستقبل المنظور، فإن احتمال الحرب بدونها ضئيلاً.

النزاعات الحالية

في النزاعات الحالية في أفغانستان والعراق، إن الطبيعة متعددة النواحي لكل من الأهداف السياسية الأمريكية والنزاعات نفسها جعلت فعّالية استخدام القوة الجوية صعبة القياس. ففي أفغانستان يمكن إدراج تلك الأهداف السياسية كـ: (١) تدمير قدرة تنظيم القاعدة على ارتكاب إرهاب عالمي، ويشمل ذلك إزالة ملاجئ تنظيم القاعدة لشن الهجمات؛ (٢) العقاب على هجمات ١١ سبتمبر ("وضع المسئولين عنها أمام العدالة")؛ (٣) منع التوسّع/التطوير المستقبلي للإرهاب العالمي؛ و(٤) الحفاظ على دعم بقية العالم للأعمال الأمريكية، خاصة العالم الإسلامي.

وفي العراق، وجّهت أهداف سياسية متميّزة المرحلة الأولى لحرب أمريكا هناك: (١) إسقاط صدّام حسين من الحكم لإزالة قدرته المحسوسة على الانخراط في أنشطة إرهابية على مدى عالمي، وبشكل خاص مع أسلحة الدمار الشامل، و(٢) الاحتفاظ بالحد الأعلى على دعم بقية العالم للأعمال الأمريكية، خاصة العالم الإسلامي. ومنذ إزاحة صدّام حسين من السلطة، سعت الولايات المتحدة وراء هدفين رئيسيين في العراق: (١) خلق الظروف الضرورية لتبنّي حكومة ديمقراطية؛ و(٢) الاحتفاظ بالحد الأعلى على دعم بقية العالم للأعمال الأمريكية، خاصة العالم الإسلامي.

ومن النظرة الأولى، فإن الأهداف الثلاثة الأولى في أفغانستان، والأهداف الأولى في مرحلتي الحرب في العراق، يمكن اعتبارها إيجابية، بينما الهدف الأخير، لـ "المحافظة على أقصى دعم للأعمال الأمريكية من بقية العالم" يمكن اعتباره سلبياً. ورغم ذلك، فبينما يتطلب الهدف الثالث في أفغانستان قوة عسكرية فتّاكة لتدمير الخلايا الإرهابية ومنعها من التوسّع، فإن استخدام قوة أكثر من اللازم يمكن أن ينتج ضرراً جانبياً أو انطباع بأن الدمار عشوائي، وأي منهما يمكن أن يستعمل كأداة تجنيدية لتنظيم القاعدة وتحقيق نتائج عكس المطلوبة. وهكذا، فإن هذا الهدف الثالث يجب أن يصنّف كإيجابي وسلبي.

وفي العراق، أثناء المرحلة الأولى لعملية الحرية العراقية، تطلّب هدف إزاحة صدّام حسين من السلطة استخدام القوة العسكرية الفتّاكة ولذلك يعتبر هدف إيجابي. ولكن منذ هزيمة صدّام، ظهر هدف خلق الشروط الضرورية لتبنّي الديمقراطية ظهر كهدف شائك. فمن ناحية، إن القوة العسكرية الفتّاكة ضرورية لمنع الاضطراب واسع الانتشار والأنشطة الإرهابية التي تهدّد الحكومة الناشئة. ومن ناحية أخرى، فإن بذل قوة أكثر من اللازم يمكن أن يثير توتّرات وتؤدي إلى عنف واضطراب إضافي ويقلل من احتمال نشوء عراق ديمقراطية. ووفقاً لذلك، يجب تمييز هذا الهدف بأنه إيجابي وسلبي أيضاً.

وفي كلا النزاعين، كان للمتغيّرات الأخرى، وسيظل لها، تأثير هام على فعّالية القوة الجوية. ففي أفغانستان، لم يكن تنظيم القاعدة والطلبان هما نفس الأعداء، وتحطيم الطلبان ما عادل إزالة تنظيم القاعدة. وهما كذلك لم يشنّا نفس النوع من الحرب. ففي الأشهر الأربعة الأولى من الصراع، كوّن الطلبان معظم القوات في أفغانستان وخاضوا حرباً "تقليدية" ضد التحالف الشمالي وقوات التحالف. وساهمت القوة الجوية في تحطيم قوة الطلبان أثناء تلك الفترة. ولكن منذ ذلك الحين، أصبح القتال يشبه حرب العصابات الذي أصاب القوات السوفيتية طوال معظم محنتهم ولمدة ثماني سنوات. وأثبت كل من تضاريس أفغانستان ومناخها أنهما أقل من مثاليين للعمليات الجوية، رغم أن التكنولوجيا ساعدت على التغلّب على بعض من تلك الصعوبات. وأثّرت القيود العسكرية أيضاً على الجهد الجوي على شكل مراجعات قانونية للأهداف المحتملة.

وأثناء المرحلة "التقليدية" الأولى للمعركة في العراق، كانت القوة الجوية فعّالة بشكل مدمّر في إيقاف حركة قوات صدّام وإبادتها بعد عزلها. كان تأثير القوة الجوية ضد القوات المتمرّدة التي ظهرت منذ هزيمة صدّام أقل تأكيداً. وكما في أفغانستان، فإن حرب العصابات في العراق خلقت شروطاً صعبة لتطبيق القوة الجوية بنجاح. ومرة أخرى، ساعدت التكنولوجيا على إزالة بعض الصعوبات ولكن القيود العسكرية موجودة أيضاً في العراق، وإن المراجعات القانونية للأهداف المحتملة هناك أيضاً شائعة.

وبرغم ذلك، فإن مثل هذه المراجعات يجب أن تحدث إذا كانت القوة الجوية ستساعد على تحقيق الأهداف السلبية بالإضافة إلى الأهداف الإيجابية في النزاعات الحالية. وفي كلتا الحربين، كان الكفاح عالمي ومن نواحي عديدة للنيل على "القلوب والعقول،" فإن التصوّرات في أغلب الأحيان أكثر فعّالية من الحقيقة، والأعداء الذي يعتمدون على الوسائل الغير متماثلة سيعملون بسرعة على استخدام تصوّرات مناسبة لنهاياتهم. وهزيمة أولئك الخصوم ستتطلّب توظيفاً حذراً للقوة الجوية - سواء بالتطبيق المباشر/المستقل ضد أهداف القيادة المنعزلة أو المباشر/الإضافي لمساندة العمليات البرّية أو الغير مباشر/المستقل في

جهود الإغاثة الإنسانية. وبغض النظر عن كيفية التطبيق، فإن مفتاح نجاحها سيكون ضمان أن جميع المعنيين ينظرون إلى استخدامها في أفضل ضوء ممكن.

وفي التحليل النهائي، فإن فعّالية القوة الجوية ضد أي نوع من العدو تعتمد على مقدار دعمها للأهداف السياسية الإيجابية بدون المخاطرة بتحقيق السلبية منها. ولا يقدّم الإطار المعروض هنا ضماناً للنجاح أو الفشل - ولا هو يتنبّأ بالمستقبل. ولكنه ينصح أولئك الزعماء العازمين على استخدام القوة الجوية على التأنّي قبل اتخاذ ذلك القرار. ويحذّر كلاسويتز بأن "لا أحد يبدأ حرباً - أو بالأحرى، لا أحد بكامل إمكانياته العقلية يجب أن يفعل ذلك - بدون أن يكون أولاً واضحاً في ذهنه عما ينوى إنجازه بتلك الحرب وكيف ينوي ذلك."[١٥] وذلك التحذير، الذي ألقي تقريباً قبل قرنين إلى القرّاء الذين قاتلوا ضد نابليون بالبنادق والسيوف، ما زال ملائماً في عصر الحرب الجوية.

ملاحظات

١- التقرير الرباعي لمراجعة أنظمة الدفاع (واشنطن، دي. سي.: وزارة الدفاع، ٣٠ سبتمبر ٢٠٠١).

٢- كارل فون كلاسويتز، عن الحرب، إصدار وترجمة مايكل هوارد وبيتر باريت (برينسيتون، نيو جيرسي: مطبعة جامعة برينسيتون، ١٩٧٦)، ٨٧.

٣- وليام ميتشيل، الدفاع المجنّح: تطوير وإمكانيات القوة الجوية الحديثة (١٩٢٥؛ إعادة طبع، نيويورك: نشرات دوفر المحدودة. ، ١٩٨٨)، ١٢.

٤- م. ج. أرميتاج و ر. أ. ماسون، القوة الجوية في العصر النووي (أوربانا، إلينويز: مطبعة جامعة إيلينويز، ١٩٨٣)، ٢.

٥- المرجع السابق ، ٣.

٦- المصطلح المتروك تحريم ساحة المعركة الجوية Battlefield Air Interdiction يصف هذه الوظيفة الإضافية.

٧- مقتبس في جون شلايت، الحرب في فيتنام الجنوبية: سنوات الهجوم، ١٩٦٥ - ١٩٦٨، القوات الجوية الأمريكية في جنوب شرق آسيا (واشنطن، دي. سي.: مكتب تاريخ القوات الجوية، ١٩٨٨)، ٢١٦.

٨- قد تساعد عوامل أخرى على تعريف ساحة المعركة أيضاً. وهذه تتضمن مجموعات الأسلحة التي تملكها القوات البحرية أو البرية المنتشرة، أو موقع مثل هذه العلامات كصف أمامي للقوات Forward Line of Troops وخط تنسيق دعم النيران Fire Support Coordination Line. ولقد أكّد آدم وليام أوينز، نائب الرئيس السابق لهيئة الأركان المشتركة أن ساحة المعركة تتضمن الـ٤٠,٠٠٠ ميلاً مربّعة في مساحة ٢٠٠ ×٢٠٠ ميل. ورغم أن تصوير الأدميرال أوينز الدقيق قد يكون ملائماً في حرب تقليدية، إلا أنه قد لا يناسب أنواعاً أخرى من الصراع. أنظر المقدّم تيري ل. نيو،"أين يرسم الخط بين المعركة الجوية والبرّية،" مجلة القوة الجوية ١٠، رقم ٣ (خريف ١٩٩٦): ٣٤ -٤٩، عن كيف تتأثر ساحة المعركة بالعلاقة بين الصف الأمامي للقوات وخط تنسيق دعم النيران. وعن فكرة الأدميرال أوينز عن ساحة المعركة، أنظر ألان د. زيم، "الحرب المتمركزة حول الإنسان،" مداولات معهد قوات الدفاع البحرية الأمريكية ١٢٥ (مايو١٩٩٩): ٢٨.

٩- عقيدة قوة الدفاع الجوي ١، عقيدة القوات الجوية الأساسية، ١٧ نوفمبر ٢٠٠٣.

١٠- هذه الشروط لا يجب أن يشوّشها مفهوم كلاسويتز عن الأهداف الايجابية والسلبية، الذي يستخدمه فيما يتعلق بالهجوم والدفاع.

١١- النشر المشترك ٢-٠١، قاموس المصطلحات العسكرية والمرتبطة بها لوزارة الدفاع، أبريل ٢٠٠١، ٣٨٠، على الإنترنت، بالإنترنت، ١٤ سبتمبر٢٠٠٢، متوفر من http://www.dtic.mil/doctrine/jel/new_pubs/jp_02.pdf

١٢- انظر بارد إ. أونيل وإلانا كاس، "حرب الخليج: تقييم سياسي-عسكري،" الاستراتيجية المقارنة ١١ (أبريل - يونيو ١٩٩٢): ٢١٩، لمناقشة شاملة لأهداف الحرب الأمريكية في حرب الخليج في عام ١٩٩١.

١٣- فكرة كلاسويتز عن الاحتكاك تؤثّر أيضاً على قدرة القوة الجوية على تحقيق الأهداف السياسية الايجابية (والسلبية)، ولكن، على خلاف المتغيّرات الخمسة، فإن الاحتكاك ثابت لا يمكن تحديده طبقاً للفرضيات والتحليلات.

١٤- روبرت ف. فوتريل، القوات الجوية الأمريكية في كوريا، ١٩٥٠ -١٩٥٣، طبعة معدلة (واشنطن، دي. سي.: مكتب تاريخ القوات الجوية، ١٩٨٣)، ٤٨٠ -٨٥؛ واللواء أو. ب. ويلاند، نسخة من التاريخ الشفهي، مقابلة للدكتور جيمس هاسدورف واللواء نويل باريش، سان انطونيو، تكساس، ١٩ نوفمبر ١٩٧٤، وكالة الأبحاث التاريخية للقوات الجوية، قاعدة ماكسويل الجوية، ألاباما، ملف رقم 239.0512-813, 107, 113 K.

١٥- كلاسويتز، ٥٧٩.